(٢١)

اتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عز وجل

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد على آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين اللهم إنا نسألك أن توفق شيخنا وان تعينه وان تغفر لنا ولشيخنا أجمعين.

قال شيخ الإسلام أبو العباس ((وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه: «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات» ، قال في آخر خطبته: «فاتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله عز وجل، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولاً واحدًا، وشرعًا ظاهرًا، وهم الذين نقلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حتى قال: «عليكم بسنتي» وذكر الحديث. وحديث «لعن الله من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا» وقال: فكانت كلمة الصحابة على اتفاق من غير اختلاف، وهم الذين أُمرنا بالأخذ عنهم؛ إذ لم يختلفوا بحمد الله تعالى في أحكام التوحيد وأصول الدين من الأسماء والصفات كما اختلفوا في الفروع، ولو كان منهم في ذلك اختلاف لنُقل إلينا كما نُقل سائر الاختلاف، فاستقر صحة ذلك عن خاصتهم وعامتهم حتى أدوا إلى التابعين لهم بإحسان، فاستقر صحة ذلك عند العلماء المعروفين حتى نقلوا ذلك قرنًا بعد قرن، لأن الاختلاف كان في الأصل عندهم كفر، ولله المنة))

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أبو عبد الله محمد بن خفيف رحمه الله وصفه بالإمام. وهو شافعي شيرازي من الزهاد العباد. ولد رحمه الله سنة ٢٧٦هـ وتوفي ٣٧١هـ. وقد ذكر في خطبته هذه التي نقل الشيخ منها هذه القطعة اتفاق الصحابة رضوان الله عليهم على مسائل التوحيد وعدم اختلافهم في شيء من مسائل الأصول وإن اختلفوا في الفروع وذلك لأن هذه المسألة العظيمة مسألة محكمة لم يتطرق إليها الخُلف وإنما وقع الخُلف فيما هو مسرح الاجتهاد في مسائل الفرائض الفروع مما جرى بين الصحابة واحتمل. أما ما سوى ذلك فالخلاف فيه كفر؛ لأن الأصل عندهم محفوظ بحمد الله ، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة.

((ثم إني قائل . وبالله أقول . إنه لما أحدثوا في أحكام التوحيد وذكر الأسماء والصفات على خلاف منهج المتقدمين من الصحابة والتابعين، فخاض في ذلك من لم يعرفوا بعلم الآثار، ولم يعقلوا قولهم بذكر الأخبار، وصار معولهم على أحكام هواجس النفس المستخرجة من سوء الطوية وما وافق على مخالفة السنة، والتعلق منهم بآيات لم يسعدهم فيها، فتأولوا على أهوائهم، وصححوا بذلك مذاهبهم: احتجت إلى الكشف عن صفة المتقدمين، ومأخذ المؤمنين ومنهاج الأولين، خوفًا من الوقوع في جملة أقاويلهم التي حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ومنع المستجيبين له حتى حذرهم))

إذن هذا مدخل حسن. فإنه لما ذكر اتفاق الصحابة الكرام على مسائل التوحيد والأصول بين أنه وقع اختلاف فيما كان بعدهم بسبب قلة بضاعتهم في العلم، وعدم احتمالهم للآثار وعدم تعقلهم للأخبار، فوقعوا في مخالفة السنة وفاهوا بما لم يقله الكتاب والسنة والسلف المتقدمون لأجل ذلك أراد أن يبين وأن يكشف الحق من الباطل.

((ثم ذكر أبو عبد الله خروج النبي صلى الله عليه وسلم وهم يتنازعون في القدر وغضبه. وحديث: «لا أُلْفَيَنَّ أحدَكم متكئًا على أريكته». وحديث: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»))

وهذه ثلاثة أحاديث مشهورة فيها تحذير النبي ﷺ من الفرقة والاختلاف. فأما حديث تنازعهم في القدر فهو حديث حسن أخرجه الإمام أحمد ولفظه أنه خرج ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر "فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان" هذا التعبير كناية عن الغضب ، لأن من فقئ في وجهه حب الرمان احمر وجهه. فكان هذا كناية عن الغضب. وقال أبهذا أمرتم أم لهذا خلقتم؟ تضربون كتاب الله بعضه ببعض فبهذا هلكت الأمم قبلكم. هذا واحد. الثاني" لا ألفين أحدكم" هذا حديث صحيح ولعله قصد به " لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ يقول ما وَجَدْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ فخذوه وما لم تجدوا فدعوه " وحديث الافتراق مشهور، حديث " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي. وفي بعض الروايات: هي الجماعة. " وهو حديث صحيح تلقته الأمة واحتملته.

((ثم قال: فلزم الأمة قاطبة معرفة ما كان عليه الصحابة، ولم يكن الوصول إليه إلا من جهة التابعين لهم بإحسان المعروفين بنقل الأخبار ممن لا يقبل المذاهب المحدثة، فيتصل ذلك قرنًا بعد قرن ممن عُرفوا العدالة والأمانة، المحافظين على الأمة ما لهم وما عليهم من إثبات السنة. إلى أن قال: فأول ما نبتدئ به ما [أوردنا] هذه المسألة من أجلها، ذكر أسماء الله عز وجل وصفاته مما ذكر الله في كتابه، وما بيَّن صلى الله عليه وسلم من صفاته في سنته، وما وصف به عز وجل نفسه مما سنذكر قول القائلين بذلك مما لا يجوز لنا في ذلك أن نرده إلى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك، ومما قد أمرنا بالاستسلام له.))

إذن هو رحمه الله رأى أن البداءة بالأهم قبل المهم. وأهم هذه المسائل ما يتعلق بالعلم بالله تعالى في ذكر أسماء الله ﷻ في كتابه وما بينه نبيه ﷺ من صفاته في سنته. فدل ذلك على أن السلف المتقدمين يبتدؤون الحديث في هذه المسائل ولا ينأون عنها كما يدعي بعض الناس بل يبدؤون في تقريرها كما ذكرها الله وكما ذكرها نبيه ﷺ . لكن لا يفتحون على العامة باب إشكال وإنما يقررونها كما جاء تقريرها في الكتاب والسنة ولا يزيدون عن ذلك ولا ينقصون. وإنما يتحول المقام إلى مقام جدال ورد للخصومة إذا انبرى المخالفون بالدعاوى الباطلة، فحينئذ يتعين كشف زيفهم والرد عليهم. أما ابتداء العامة فلا يكون إلا بما نطق به الكتاب والسنة، وهو كاف في تحصيل العلم النافع. وأما ابتداء العامة بذكر الشبهات وتفتيق المسائل التي هي بعيدة عن أذهانهم غريبة عن خواطرهم فهذا ليس بمنهج مستحسن بل هو مفتاح الوسوسة. فإبقاؤهم على فطرهم الأصلية السليمة أولى بالعالم من أن يفتح عليهم باب شك.

((إلى أن قال: ثم إن الله تعرف إلينا بعد إثبات الوحدانية وإقرار الألوهية: أن ذكر تعالى في كتابه بعد التحقيق، بما بدأ به من أسمائه وصفاته، وأكده عليه السلام بقوله، فقبلوا منه كقبولهم، لأوائل التوحيد من ظاهر قوله لا إله إلا الله.

إلى أن قال بإثبات نفسه بالتفصيل من المجمل، فقال لموسى عليه السلام: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [طه:٤١] ، وقال: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ} [آل عمران:٣٠] ولصحة ذلك، واستقراره ناجاه المسيح عليه السلام فقال: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة:١١٦] وأكد عليه السلام صحة إثبات ذلك في سنته فقال: «يقول الله عز وجل: من

ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» . وقال صلى الله عليه وسلم: «كتب كتابًا بيده على نفسه: إن رحمتي سبقت غضبي» .

وقال: «سبحان الله رضى نفسه» ، وقال في محاجة آدم لموسى: «أنت الذي اصطفاك الله واصطنعك لنفسه؟» .
فقد صح بظاهر قوله أنه أثبت لنفسه نفسًا، وأثبت له الرسول ذلك، فعلى من صدق الله ورسوله اعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه ويكون ذلك مبنيًا على ظاهر قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}))

الحمد لله . قد ذكر آيات من كتاب الله وأحاديث صحيحة. كل ما ذكر من هذه النصوص الحديثية فهو صحيح بحمد الله عند البخاري وعند مسلم ، وكلها قد توافرت على إثبات لفظ "النفس". فيوصف سبحانه بأن له نفسًا كريمة. ونفسه سبحانه هي ذاته. ولكن تفهم نفسه على ما دل عليه قوله {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}. فليس نفس كنفس. بل الله تعالى ليس كمثله شيء.

((ثم قال: فعلى المؤمنين خاصتهم وعامتهم قبول كل ما ورد عنه عليه السلام بنقل العدل عن العدل حتى يتصل به عليه السلام، وأن مما قص الله علينا في كتابه، ووصف به نفسه، ووردت السنة بصحة ذلك أن قال: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ثم قال عقيب ذلك: {نُّورٌ عَلَى نُورٍ} [النور:٣٥] وبذلك دعاه صلى الله عليه وسلم: «أنت نور السماوات والأرض» ثم ذكر حديث أبي موسى: «حجابه النور . أو النار . لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وقال: سبحات وجهه: جلاله ونوره، نقله عن الخليل وأبي عبيد، وقال: قال عبد الله بن مسعود: نور السماوات من نور وجهه.

ثم قال: ومما ورد به النص أنه حي، وذكر قوله تعالى: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة:٢٥٥] ، والحديث: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» . قال: ومما تعرف الله إلى عباده أن وصف نفسه أن له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام، فأثبت لنفسه وجهًا، وذكر الآيات. ثم ذكر حديث أبي موسى المتقدم، فقال: في هذا الحديث من أوصاف الله عز وجل «لا ينام» موافق لظاهر الكتاب {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} [البقرة:٢٥٥] ، وأن له وجهًا موصوفًا بالأنوار وأن له بصرًا كما أعلمنا في كتابه أنه سميع بصير.ثم ذكر الأحاديث في إثبات الوجه، وفي إثبات السمع والبصر، والآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ثم إن الله تعرف إلى عباده المؤمنين، وأنه قال: له يدان قد بسطهما بالرحمة، وذكر الأحاديث في ذلك، ثم ذكر شعر أمية بن أبي الصلت، ثم ذكر حديث: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رجله» ، وهي رواية البخاري، وفي رواية أخرى: «يضع عليها قدمه» .ثم ما رواه مسلم البطين عن ابن عباس: «أن الكرسي موضع القدمين، وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله» وذكر قول مسلم البطين نفسه، وقول السدي، وقول وهب بن منبه، وأبي مالك، وبعضهم يقول: «موضع قدميه» وبعضهم يقول: «واضع رجليه عليه»))

الواقع أن هذا من جملة التعرف قال ((ثم قال ثم إن الله تعرف إلى عباده المؤمنين أن قال)) يعني كان تفسيرا للجملة السابقة. ((أن قال له يدان بسطهما ... واضع رجليه)) قد أثبت محمد بن خفيف رحمه الله هذه الصفات الخبرية لله ﷻ، فأثبت بعد النفس وصف النور وأثبت كذلك الوجه وأثبت كذلك اليدين أثبت الرجل أو القدم كما جاءت بلفظين. فهذا يدل على أن طريقة السلف قبول هذه الأخبار واحتمالها وعدم رد شيء منها لشناعة شنعت. فإن القوم قد أحسنوا الظن بربهم سبحانه فلم يتبادر

لأذهانهم ما يوجب صرفها عن ظاهرها ، فإنه لا يصرفها عن ظاهرها إلا من ظن بالله ظن السوء واعتقدها دالة على نقص فحينئذ يفزع للتحريف. أما من حملها على المحمل اللائق بالله ﷻ فإنه يتماشى معها ويمرها على ظاهرها ولا يتعرض لها بأي نوع من أنواع التحريف.

((ثم قال: فهذه الروايات قد رويت عن هؤلاء من صدر هذه الأمة موافقًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم متداولاً في الأقوال، ومحفوظًا في الصدور، لا ينكر خلف عن سلف ولا ينكر عليهم أحد من نظرائهم، نقلتها الخاصة والعامة مدونة في كتبهم إلى أن حدث في آخر الأمة من قلل الله عددهم ممن حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم ومكالمتهم، وأمرنا ألا نعود مرضاهم، ولا نشيع جنائزهم، فقصد هؤلاء إلى هذه الروايات فضربوها بالتشبيه وعمدوا إلى الأخبار، فعملوا في دفعها على أحكام المقاييس، وكفَّروا المتقدمين، وأنكروا على الصحابة، وردوا على الأئمة الراشدين، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.))

أشار بذلك لطريقة الجهمية ومن سار على نهجهم من القدرية والمعتزلة وغيرهم الذين واجهوا هذه النصوص التي تلقاها سلف هذه الأمة بالقبول بأن ردها هؤلاء وأعملوا فيها المقاييس العقلية وخطأوا المتقدمين بل ربما كفروهم وأنكروا بذلك على سلف الأمة طريقتهم — إن بطريقة مباشرة بالرد والإعراض ونبذهم بألقاب السوء كوصفهم لهم بأنهم نوابت وحشوية مجسمة وغير ذلك من ألقاب السوء التي نحتوها – رموا بها السلف المتقدمين، أو بطريقة فيها نوع تلبيس كقول من قال "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم" كأنما السلف يؤمنون بألفاظ جوفاء لا دلالة لها، وأنهم أولوا تأويلاً إجماليًا بزعمهم، وأن الخلف هم أهل التحقيق. فلهذا كان هؤلاء قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

((ثم ذكر المأثور عن ابن عباس، وجوابه لنجدة الحروري)) أما المأثور عن ابن عباس في جوابه عن الحروري. فقد أشار عندي في الحاشية قال: أخرج مسلم في صحيحه أن نجدة – تعلمون نجدة الحروري هذا من كبار ورؤوس الخوارج وهو و نافع بن الأزرق وأشكالهما وتنسب إليه فرقة من الخوارج يقال لم النجدات نسبت إليه – قال أخرج مسلم في صحيحه أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خمس خلال فقال ابن عباس "لولا أن أكتم علمًا ما كتبت إليك" يعني أنه كتب إليه تحرجًا وتورعًا من كتمان العلم. كتب له نجدة "أما بعد فأخبرني هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء؟ وهل كان يضرب لهن بسهم؟ وهل كان يقتل الصبيان؟ ومتى ينقضي يتم اليتيم؟ وعن الخمس لمن هو؟) هذه خمس مسائل.

((فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّكَ كَتَبْتَ تَسْأَلُنِي هَلْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ ، فَقَدْ كَانَ يَغْزُو بِهِنَّ ، فَيُدَاوِينَ الْمَرْضَى وَيُحْذَيْنَ مِنَ الْغَنِيمَةِ ، وَأَمَّا السَّهْمُ فَلَمْ يَضْرِبْ لَهُنَّ بِسَهْمٍ)) وإنما يحذين على سبيل العطية وتطييب الخاطر ((وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقْتُلِ الصِّبْيَانَ ، فَلا تَقْتُلْهُمْ ... وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي مَتَى يَنْقَضِي يُتْمُ الْيَتِيمِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ الرَّجُلَ لَتَنْبُتُ لِحْيَتُهُ وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الأَخْذِ لنفسه ضعيفا العطاء منها ، فَإِذَا أَخَذَ لِنَفْسِهِ مِنْ صَالِحِ مَا يَأْخُذُ النَّاسُ فَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ الْيُتْمُ)) فهو رحمه الله عرف اليتم بالرشد {فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [النساء: ٦]طبعًا اليتم غير ما يترتب على أحكام البلوغ، فأحكام البلوغ تترتب عليه أحكام كثيرة جدًا لكن ما يتعلق بالولاية على المال متعلق بالرشد ((وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْخُمُسِ لِمَنْ هُوَ وَإِنَّا كُنَّا نَقُولُ : هُوَ لَنَا ، فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَا قَوْمُنَا)) يعني قصده وإن كنا نقول هو لنا أي لأهل بيت رسول الله ﷺ قال فأبى علينا قومنا ذاك. هذه خمس مسائل أثبتها الإمام مسلم في صحيحه من مسائلة نجد لابن عباس وجوابه عنها.

((**ثم ذكر حديث الصورة وذكر أنه صنف فيه كتابًا مفردًا واختلاف الناس في تأويله.**)) حديث الصورة حديث مشهور والحديث قد روي في الصحيحين "إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله قد خلق آدم على صورته" وجرى خلاف في المسألة حتى أن هناك من غرق فيها منهم إمام الأئمة ابن خزيمة وهو الإمام ابن خزيمة واستدرك عليه ذلك. فإن "الله خلق آدم على صورته" قد ذهبت بالناس مذاهب فيها كما أشار رحمه الله. فمنهم من جعل مرجع الضمير على آدم. قال فإن الله خلق آدم على صورته يعني على صورة آدم. فكان الإمام أحمد يقول: وأي صورة لآدم قبل أن يخلق؟ وقيل: إن مرجع الضمير إلى الله ﷻ، وهذا هو الحق . لكن من أرجع الضمير إلى الله إما أنه حملها "فإن الله خلق آم على صورته" يعني على الصورة التي خلقها الله ﷻ، فهي صورة مخلوقة خلق عليها آدم وإما – وهذا هو الصواب أنه خلق على صورة الرحمن وليس المقصود أنه مثله، حاشا وكلا وإنما الرحمن سميع بصير عليم قدير له وجه وله يدان وابن آدم له سمع وله بصر وله علم وله قدرة وله وجه وله يدان ونحو ذلك. ليس سمع كسمع وليس بصر كبصر وليس يدان كيدين. فلا يلزم من كون الضمير عائدًا إلى الله تعالى أن تكون الصفة مطابقة للصفة، **وإنما هو اشتراك في الأسماء والمعنى العام الكلي المشترك.** فالسمع إدراك الأصوات، والبصر إدراك المرئيات، وليس سمع كسمع ولا بصر كبصر، ولا وجه كوجه. ولذلك جاء هذا اللفظ عند ابن أبي عاصم مصرحًا به ليس مضمرًا، اسم ظاهر ، قال "فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن" هكذا، وكما رأيتم أنها تتوجه بتوجيه لا إشكال عليه ولا يلزم منه تمثيل كما قد سبق لبعض الأذهان فاضطر للعمل على تأويلها إما بجعل الضمير يرجع لآدم أو على الأخ المضروب أو غير ذلك من التأويلات.